كيمياء الأفكار والعواطف

للأستاذ أحمد أمين

كان القدماء يفهمون من « الكيمياء » الأكسير المنشود ، الذى إذا عُثر عليه وأضيف الى الزئبق أو الفضة بكمية محدودة ، تحت حرارة معينة ، انقلب الزئبق أو الفضة ذهباً إبريزاً

وليس يعنينا هنا أن نبين ما أنفق الناس من جهد فى الوصول إليه ، ولا ما أنفقوا من مال وزمان فى سبيل العثور عليه ، ولا ما ملئت به كتب الفلسفة الاسلامية من جدل فى امكان ذلك أو استحالته

إنما يعنينا هنا أن نقول إن العلماء والأدباء نقلوا استعمال هذه الكلمة إلى المعانى بعد أن كانت قاصرة على المادة ، فسمى « الغزالى » كتاباً من كتبه « كيمياء السعادة » يعنى بذلك الأكسير الروحى الذى إذا عثر عليه الانسان حظى بالسعادة

وقد استعملها ابن الرومى استعمالاً ظريفاً فى معنى قريب من هذا ، فقال يهجو أبا الصقر

عَجِبَ الناسُ من أبى الصَّقْـــرإذولى ـ بعدالاجارة ـ الديوانا
إن للجَدّ كيمياءَ إذا مَا مَسَّ كلباً أحاله انســـانا
يفعل الله ما يشاءُ كما شـــا ء متى شـــاء كائنا ما كانا

* * *

ثم سار الزمن الذى يغير كل شىء ، فغير ـ فيما غيره ـ مدلول كلمة « الكيمياء » وجعله قسيما للطبيعة ، فكما أن الطبيعة اختصت بدراسة الظواهر التى تغير صفات الأشياء ولا تغير جوهرها ، اختصت الكيمياء بدراسة الظواهر التى تغير جوهر الأشياء ، فاتسع مدلولها ، وصار آخر ما تفكر فيه تحويل المعادن إلى ذهب إن كانت تفكر فيه

والذى أريد أن ألفت اليه النظر فى مقالى أن هناك كيمياء فى الأفكار والعواطف تشبه تلك التى فى المادة ، إلا أنها أعقد منها ، وأصعب حلاً ، وأغمض اكتشافاً ـ وإلى الآن لم توضع كتب ـ على ما أعلم ـ فى كيمياء المعانى على كثرة ما وضع فى كيمياء المادة ـ وإن كانت كتب علم النفس أحياناً تمس هذا الموضوع مساً رفيقاً

* * *

فلكيمياء الأفكار والعواطف فصول وأبواب لاعداد لها ، قد ينطبق عليها فى كثير من الأحيان فصول الكيمياء المادية وأبوابها ، ففى كيمياء المعانى ترشيح وتبخير وذوبان كالتى فى كيمياء المادة ، وفيها تبلور وتقطير ، وفيها عناصر ومركبات ومخاليط ، وفيها أحماض وأملاح وقواعد ، وفيها جزيئات وذرات لها أوزان وكثافات ـ ولها رموز وقوانين أدق من رموز الكيمياء المادية وقوانينها ، ولها معادلات أصعب حلاً وأبعد متناولاً

هل علمت ـ مثلا ـ أن الماء يتكون من غازى الأوكسيجين والأيدروجين بنسبة واحد من الأول واثنين من الثانى باعتبار الحجم ـ فكذلك الشأن فى الأفكار والعواطف ، فقد يكون لديك فكرة من نوع ما ، أو عاطفة من نوع ما ، ثم تسمع فكرة من محدث ، أو تقرأ فكرة فى كتاب ، وتكون فكرتك من وزن خاص ، والفكرة التى سمعتها أو قرأتها من وزن آخر ، فتتحد هاتان الفكرتان ، وتتولد منهما فكرة جديدة لاهى من النوع الأول وحده ، ولا من النوع الثانى وحده ، بل هى نوع خاص ، علاقته بالفكرتين كعلاقة الماء بالأوكسيجين والأيدروجين

وهل علمت أنك إذا ملأت قارورة ثلثها بالأوكسيجين وثلثيها بالايدروجين ثم قربت فوهتها من لهب تسمع لذلك دوياً هائلا ؟ كذلك الشأن فى العواطف ، فقد يكون لديك عاطفة من نوع خاص ، ثم تسمع خطبة من نوع يناسبها فتنفجر نفسك لهذا الاتحاد انفجاراً هائلا ، وتحس ناراً تملأ نفسك . وتذكى حسك ؛ ـ أوليس الغضب يحمر وجه صاحبه وتنقدح عيناه ، ويجعله يقذف بالكلمات الحادة العنيفة ، ولا تهدأ ثائرته حتى ينتقم ـ ضرباً من ضروب هذا التفاعل الذى يشبه تفاعل الغازين ؟ أو ليست الحماسة تدفع الجندى ليرمى بنفسه فى خط النار ، ولا يقيم للحياة وزناً ، أثراً من آثار ما يسمع من كلمات القائد وما يشعر من جو وبيئة ؟ أوليس الحب يذيب النفس ، ويرهف الحس ، ويملأ القلب أسى حيناً ، وفرحاً وغبطة حيناً إلا نوعاً من هذا التفاعل دونه التفاعل المادى ، والاتحاد الكيمياوى ؟

وكل ما ندرك من فرق بين التفاعل المادى والتفاعل الروحى أنا استطعنا أن نخضع المادة لبساطتها فنحلل أجزاءها بالكهرباء أو ما أشبهها ونقيس مقدار العنصرين أو العناصر المتحدة ، ونعرف مقدار كل منها ، ونرصد أثر التفاعل . أما فى الأفكار والعواطف فليس الأمر بهذه السهولة ، فلكل انسان آراؤه وعواطفه وهى تختلف فيما بينها كل الاختلاف ، فى جوهرها ، وفى قابليتها لأفكار الآخرين وعواطفهم ، فقد ناقى الكلمة على عدد محدود من الناس فنشعر بأن أثرها عند كل انسان يخالف أثرها عند الباقين ، كضوء النهار يفتح أعيننا ويغمض عين الخفاش ، وقد يقرأ أحد كتاباً فيزعم أنه غيّر مجرى حياته ، وقلب تفكيره رأساً على عقب ، وألهمه من المعانى ما استحال بها انساناً آخر ، وأحدث فى نفسه ثورة فكرية لم يحدثها أى كتاب غيره ، ويقرؤه انسان آخر فلا يشعر هذا الشعور ولا قريباً منه ولا يحس له ميزة ولا يجد له طعماً . وهذا بعينه ما يحدث فى الأجسام ، تقرب عود ثقاب مشتعل من ورق فيشتعل ، وتقربه من ثلج فيذوب ، وتقربه من رخام فلا يشتعل ولا يذوب . وأؤكد لك أن الرواية تعرض فى السينما أو تمثل فى المسرح على عدد كبير من الناس تؤثر فى كل راء بمقدار لا يتفق تماماً وأثر الباقين ، وأن تأثر المشاهدين متعدد بتعدد رؤوسهم . ذلك بأن الرواية وإن كانت واحدة وممثلوها متحدين فان هناك عاملاً آخر من عوامل الوزن مختلفاً كل الاختلاف ، وهو عواطف الرائى وآراؤه ، وأن نتيجة التفاعل تختلف دائماً باختلاف أحد المزوجين المتفاعلين

إن أردت التوسع فى تطبيق هذه النظرية وجدت القول ذا سعة ، فالبائع الناجح فى المتجر ليس هو الذى يكثر الكلام أو يقل الكلام ، وليس هو الخفيف الحركة ، ولا هو المهندم الثياب ، وإنما هو الذى يعرف شيئاً واحداً ويتقنه وهو « قانون التفاعل » ينظر إلى المشترى نظرة نافذة فيعلم نفسه ، ويعلم نواحيها ، ويعرف المواضع الحساسة منه ، ويعرف فى مهارة نقط التأثر عنده ، ومقدار الأثر ، ثم يستعمل فى العرض وفى الكلام ما يتفق وما درسه من نفس المشترى ، وإذا بما يصدر من البائع مناسب لنفس المشترى ومنفعل معها على نحو خاص ، وإذا الصفقة قد تمت فى سهولة ويسر ، على حين أن زميله ومن بجواره لا يبيع مثل بيعه لأنه يخطىء فى فهم نفسية المشترى فيتفاعل تصرفه تفاعلا عكسياً مع نفسية المشترى ، فينتج من ذلك نوع من الغضب أو نوع من الكراهية أو نوع من الغضاضة ينتهى عادة بالاعراض عن الشراء ، فان سألت كيف جهل هذا وعلم ذاك ، وأين درس أحدهما ولم يدرس الآخر فنجح الدارس وفشل الجاهل ؟ قلت إن هذا الدرس لا يتعلم فى المدرسة وإنما يتعلم فى السوق ، ويتعلمه من حسن استعداده الفطرى وغريزته الطبيعية ، بل إن شئت طبقت هذه النظرية على كل ناجح وفاشل فى الحياة ، فالدرس الناجح من استطاع أن يتعرف نواحى تلاميذه ويعرف ما يُلاق ومالا يلاق ، وما يقال ومالا يقال ، ويصدر منه ما يتفاعل وهذه النفوس ، فيصدر من ذلك التفاعل عطف وحنان وحب ، ورغبة فى العلم ، ورغبة فى علمه ، ورغبة فيما يقول ، وتأثر بما يشير اليه

وما الأسرة السعيدة ؟ وما الأسرة الشقية ؟ أليست السعيدة من عرفت فيها الزوجة نفسية زوجها والزوج نفسية زوجته وعمل كل منهما على أن يصدر منه ما يتفاعل ونفس الآخر حتى ينتج هذا التفاعل تآلفاً ، فاذا انحرف أحدهما عن هذا الوجه عن جهل أو عن علم ساء البيت . ونشأ تفاعل من جنس آخر تنتج عنه البغض والكراهية والشقاق

الحق أن هذه كلها معادلات فى الكيمياء النفسية تشبه تمام الشبه المعادلات الكيمياوية التى تجرب فى المعمل ، ومع الأسف لم يصل الناس إلى حد بعيد فى دراسة هذه الكيمياء النفسية ولم ينشئوا لها المعامل الناجحة نجاح المعامل للكيمياء المادية ، والخطأ فى النفس كثير الوقوع لصعوبة تعرف الذرات النفسية وتكوين المعادلات الدقيقة

وإذا أدرك الانسان هذا التفاعل واختلافه ودقته أدرك خطورته ، وخاصة فيمن يتصل مركزه بنفوس كثيرين كالصحفى والأديب ، والمعلم والخطيب ، والزعيم ، فقد يصدر عنه ما ينفعل ونفوس الناس فيكون سما ناقعاً ، وقد ينتج عنه ما يكون دواء ناجعاً ؟

أحمد أمين